الصِّلات التاريخية
بين
الخليج العربى والمغرب الأقصى

شفيق

للأستاذ/ عبد العزيز بنعبد الله

الخليج عريق في العروبة وقد استعمل الجغرافي اليوناني سترابون المتوفي بين ٢١ و ٢٥ ميلادية كلمة الخليج العربي في وصفه للحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب ويرجع اطلاق المؤرخين اسم الخليج (×) الفارسي الى القائد اليوناني نيرمس بعدما عاد من الهند مبعوثا من سيده الاسكندر الأكبر حيث لم يمر الا من الساحل الشرقي فظن ان المنطقة كلها فارسية وتتجلى عروبة المنطقة ايضا منذ أعرق (١) العصور في الاسم الذى تحمله مقاطعة « خوزستان » الايرانية التى كانت تسمى من قبل الفرس الى السنوات الاخيرة « عربستان » اى بلاد العرب ولا تزال تقطنها الى الأن قبائل عربية مختلفة كبنى تميم الذين ينتسب اليهم الخليفة الاول أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

و « عربستان » هذه هي التي كانت تسمى « الأهواز » والأهواز كما جاء في معجم البلدان جمع هوز وأصله حوز لأنه ليس في كلام الفرس جاء حيث يقولون مهمد لمحمد ولذلك نرى أن كلمة الأهواز اسم عربي اطلق على هذا الاقليم في العصر الاسلامي وتسمى بهذا الإسم في المغرب الأقصى ناحية مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين ولعل بهذه التسمية صلة بما يحكيه بعض المؤرخين حول اسباب اطلاق اسم سوس على أقصى جنوب المغرب في الأطلس الصغير فيروي المؤرخ الروماني سالوت (Salluste) المتوفى في عام ٣٥ ق. م. (في الكتاب الذي صنفه حول « حرب يوغورتا » ملك نوميديا من أسرة أمراء البربر والمولود عام ١٥٤ ق.م) ان الفرس الذين حاولوا الاغارة على شبه الجزيرة الأيبيرية (أى اسبانيا والبرتغال) في عهد هيراكلس (Hèraclès) (وهو هيركول اللاتيني الذي سميت به أساطين هرقل أي مضيق جبل طارق شمالي المغرب الأقصى) قد تحولت أشرعة مراكبهم بشدة الريح الى المحيط الاطلنطيقي فوصلوا الى جنوب المغرب حيث اتصلوا بالجيتول (Gètules) (وهم أهل جزولة الحالية على ما يظهر) فتصاهروا معهم وسميت سوس (وكذلك كل من مدينتي سوسة التونسية والليبية وهما متشابهتان ونهر سوس قرب قرطبة واشبيلية بالاندلس وسوسية كورة بالاردن (معجم البلدان ج ٥ ص ١٧٣) وسوسة مدينة بالصين (صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٨٣) اقتباسا من كلمة سوسانة (Susiane) أو

أرض عيلام (Elam) الواقعة بمنطقة الأهواز على أن الفرس قد اشتهروا قديما بالنوميديين ومعناه الرمل بلغتهم وقد أطلق هذا الاسم على أهل نوميديا وهي إقليم إفريقي يقع بين منطقة قرطاج التي أسسها الفينيقيون كعاصمة لمستعمرتهم عام ٨١٤ ق.م وبلاد موريطانيا وقد خضعت هذه المنطقة بعد ثورة يوغورطا الى الحكم الروماني وسنرى كيف أن هذه العناصر تشكل حلقات في الشبكة الواسعة التي حبكها الفينيقيون منذ أعرق العصور بين الشمال الافريقي والخليج العربي نعم كان للعرب الكنعانيين أي الفينيقيين جولات في الخليج العربي فهم الذين أسسوا مدينة تير Tyr (صور الحالية في لبنان) في الألف الثالثة قبل الميلاد وكانت عاصمة تشرف على القوافل التي تنقل الى الغرب ما ينتجه الشرق الأسيوي عبر بحر القلزم والفينيقيون هم الذين أسسوا مدينة قرطاج (واسمها محرف عن قرية حداش أي القرية الحديثة لأنها أسست بعد كل من مدينة أوتيك (Utique) التونسية ومدينة ليكس (Lisc) المغربية حوالي ١١٠١ ق.م) وقد سقطت مدينة تير تحت الحكم الروماني عام ٦٤ ق.م واشرف عليها وعلى قصر فرعون أي وليلي القديمة (Velubilis) بالمغرب الأقصى الامبراطور الروماني سبتيم سيفيرا (Septime Sévère) بين سنتي ١٩٣ و ٢١١ ق.م) .

ويرى بعض المؤرخين أن الفينيقيين كانوا قد استقروا فترة من الزمن في شواطىء الخليج قبل ان ينتقلوا الى الساحل السوري وأنهم سموا مدينة « صور » على شاطىء البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهم الأولى على شاطىء الخليج ولعل الآثار التي تم الكشف عنها في المنطقتين تضفي على هذه الرواية سمة من الحقيقةلا سيا وأن مؤرخين محدثين قد أكدوا ذلك ومن جملتهم الأستاذ جان جاك بيريبي (J.J. Berreby) في كتابه « الخليج الفارسي» (le Golfe Persique) والاستاذ أمين الريحاني الذي أبرز بالاضافة الى ما ذكر تشابك الدوحة العربية بالدوحة الفينيقية في كتابه « ملوك العرب » .

وبذلك يكون الفينيقيون قد هاجروا من الخليج الى البحر المتوسط منذ خمسة آلاف سنة كما يقول المؤرخ رولنسون .

وقد وسع الفينيقيون شبكة مستعمراتهم على سواحل المتوسط وأسسوا ليكس واوتيك ومالقة وقادس (بالاندلس) وهبو (عناية وبنزرت) ثم تجاوزوا حسب ستربون أساطين هرقل وتأكد ذلك بعد قيام خبراء بحفريات على طول سواحل المحيط الاطلنطيقي مما قد يؤكد النظرية القائلة بأن هانون قد وصل في رحلته في القرن الخامس قبل الميلاد درعة والساقية الحمراء وربما غينيا في قلب القارة الافريقية وقد أصبحت اللغة البونيقية langue Punique المستمدة من الكنعانية العربية مع تطعيات محلية لغة أشبه بعامية افريقيا الشمالية في العصر الحاضر نشرنا بحثا عنها في مجلة « اللسان العربي » (التي أتشرف بادارتها ورياسة تحريرها وهي لسان « المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي ») وخلاصة ما في هذا البحث أنه عثر في البرازيل على حجارة مكتوبة بالعربية البونية تحمل تاريخ ١٢٥ ق.م نتج عن مقارنتها باللهجة الدارجة اليوم في المغرب العربي أن هذه اللهجات

ليست سوى امتداد أصيل للغة بني كنعان العربية العريقة التي استعملت قبل الاسلام في كل من الخليج العربي والمغرب وبذلك تأكد أن لغة الضاد قد مهدت السبيل للاسلام في المغرب العربي قبل البعثة المحمدية بأزيد من ألف عام وقد اعتبر الرحالة المغربي الكبير الحسن بن محمد الوزان المعروف عند الغربيين بليون الافريقي (Léon l'Africain) أن الفينيقيين عنصر هام في سكان افريقيا الأقدمين حيث انتقل فوج منهم صحبة مصريين الى افريقيا الشمالية عام ١٢١٥ ق.م عندما أجلاهم الاسرائيليون عن فلسطين ثم تتابعت الجاليات أيام نبي الله داود عليه السلام عام ١٠٥٥ ق.م والواقع أن العرب كانوا يملأون — بالاضافة الى الشمال الافريقي — هضاب وبطاح جنوب افريقيا حيث كشف الدكتور استانلي تيمبور على مقربة من نهر زمبيز في مقاطعة روديسيا آثارا منقوشة مع رسوم مكتوبة استدل بها على أن العرب استثمروا مناجم الذهب التي كان قد استثمرها قبلهم أسلافهم عرب اليمن وقد لاحظ صاحب قصة الحضارة (ج ٢ ص ٤٣) أن الحضارة ظهرت في بلاد اليمن وبلاد المغرب القديمة وانتشرت في صورة مثلث الى شومر وبابل وأشور ومصر ويعضد هذه النظرية ما قبل من أبوة اليمن (بلد العرب البائدة) للشعب العربي في سائر أقطاره وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط حيث كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة مما سهل استيعاب الهجرة .

وقد تحدث ابن خلدون في تاريخه (ج ١ ص ٩٩ طبعة بيروت) عن عروبة جبال الأطلسي المغربية فأشار الى ما أكده المؤرخون والنسابون العرب أمثال الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبى من أن صنهاجة (سكان الأطلسى الأوسط) ومصمودة (سكان الأطلسي الكبير) وكتامة (بشمالي وشرقي المغرب الأقصى) عرب يمنيون من سلالة حمير فيكون البرابرة — حسب هذه الرواية — أعرق في العروبة من ربيعة ومضر لانتسابهم الى افريقش بن قيس بن صيفي الحميري وقد تحدث عن هذه النظرية القلقشندي في صبح الأعشى (ج١ ص ٣٢١) فلاحظ أن افريقش هذا هو الذي نقل البربر من سواحل الشام — مركز الفينيقيين ومهاجري الخليج العربي — الى المغرب ملاحظا أن أكثر الأقوال جانحة الى عروبة البربر خلافا لابن حزم (في جمهرته — وتبعه ابن خلدون (التاريخ ج ٦ ص ٩٦) الذي زعم أنه لم يكن لحمير طريق الى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخي اليمن ويظهر ان ابن خلدون أغفل الطريق القديمة التي كانت تصل اليمن عن طريق بحر القلزم (أي عيذاب وبور سودان الحالية) وصحراء السودان والتشاد بالصحراء المغربية الممتدة من تنبكتو الى النيجر الى مراكش تلك الطريق التي أكد الحسن الوزان في وصف افريقيا (ج ١ ص ١٤ و ٢٩) أنه رافق عام ٩١٨ هـ تجارا انتقلوا من المغرب الى السودان ثم مصر حيث دشنوا طريقا جديدة من الجنوب تصل الصحراء بمصر عن طريق التشاد وكانت الطريق العادية بواسطة فزان وطرابلس قد هجرت منذ قرن نظرا لعبث عرب الساحل وكذلك البحر بسبب القرصان المسيحيين وقد لاحظ المؤرخ الالماني (هانز Hanz Helfritz) في كتاب له حول اليمن (تعريب خيرى حماد ص ١٣٤) التشابه الملحوظ بين الألحان في اغاني الجنوب العربي وبين الموسيقى البربرية التي تمكن كارل وهلم لخمان (١٧٩٣ م

— ١٨٥١ م) من تسجيلها فأبرز وحدة الانشاد أضف الى ذلك وجود أبنية بالأطلس تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربي وتحمل نفس المظاهر المعمارية وقد شرح هورون بوستل الفسوي (١٨٧٧ — ١٩٣٥ م) انتماء البربر واليمنيين الى أصل واحد ينتسب الى آسيا الشرقية .

وسنرى كيف أن سجلماسة عاصمة الصحراء كانت منذ القرن الثالث الهجري مركزا للقوافل التجارية بين بصرة المغرب وبصرة الخليج وليس يبدع ان يوغل في الصحراء أهل هذه الصحراء لا سيما وأن هؤلاء كان دأبهم في جميع الأعصار الفرار من رطوبة السواحل والتوغل في الرمال سواء كانت في النيجر أم في السودان ان أم في الثلث الحالي من جنوب غرب آسيا وقد أسس العرب مراكز تجارية في غمار الصحارى كمحطات للقوافل المحملة بالضائع المجلوبة من أقاصي البلاد وكانت التجارة آنذاك تمر حتما في الطرق البرية لأن العرب لم يكونوا قد استأنسوا بعد بالطرق الملاحية وقد ساعدت وحدة نظام الحياة القبلية في الصحراء على هذا الترابط .

ويعتبر القرن الثالث الهجري قمة نشاط الحركة التجارية برا وبحرا وفترة ذهبية في تاريخها قال القرن الثالث الهجري يرجع تاريخ الكثير من رحلات الجغرافيين العرب حول العالم كابن وهب القرشي الذي رحل الى الصين عام ٢٥٦ هـ وسليمان الصرافي الذي كتب رحلته إلى الخليج العربي والخليج الصيني عام ٢٣٧ هـ وسلام الترجمان الذي رحل الى الصين الشمالي أيام الخليفة الواثق بالله واليعقوبي صاحب البلدان وابن خردادبه، صاحب المسالك والممالك المتوفي عام ٣٠٠ هـ أما في أوائل القرن الرابع فهنالك الحسن المهلبي الذي رحل الى السودان عام ٣٧٥ هـ ومحمد التاريخي الاندلسي المتوفي عام ٣٦٣ هـ وهو صاحب « كتاب

وصف افريقية والمغرب » وأبو دلف الذي رحل الى الصين حوالي ٣٣١ هـ والاصطخرى صاحب « الاقاليم » و « المسالك والممالك » الذي لقي ابن حوقل استغرق تجواله حول العالم ثلاثين سنة والمسعودى صاحب « مروج الذهب » و « معادن الجوهر » الذي فرغ منه عام ٣٣٦ هـ وهو كما وصفه ابن خلكان إمام المؤرخين والواقع أن طريق الوطن العربي الى الصين فتح منذ عام ٣١ هـ (٦٥١ م) بتتابع سفارات بلغت في ظرف ١٤٧ سنة ستا وثلاثين بعثة دبلوماسية عربية (مجلة بناء الصين عدد ٣ — ١٩٦٦) على أن الكلمة التي استعملها التجار العرب والرحالون الاوربيون في العصور الوسطى لتسمية بيكين (Pékin) هي لفظة خان باليك (Khan balik) (دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص ١٠٢٤) وكانت الخطوط التجارية كلها سواء انبثقت من غرب اوربا أو من الشمال الافريقي أو من روسيا تؤدي الى ميناء الأبلة وميناء البصرة وقد أكد الرحالة يانيكار في كتابه حول « آسيا والسيطرة الغربية » ان العرب سواء في الشرق أم في الغرب أصبحوا يتنافسون مع الشعوب الأخرى على تجارة الأفاوية فكان للتجار مستودعات بالقاهرة والاسكندرية بل حتى بمدينة فاس في المغرب الأقصى (ص ٣٧ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد) أضف الى ذلك ان تجارة الرقيق المجلوب من افريقيا السمراء وحركة الحجيج كان لها ضلع في تعزيز هذه الحركة التجارية وقد بلغ من

اهتمام المسئولين العرب بتأمين طرق المواصلات أن عزم عمرو بن العاص وبعده هارون الرشيد على شق ترعة السويس حتى تمتد الخطوط التجارية دون انقطاع من الأندلس والمغرب الى الصين وقد اشتهرت ثلاث مدن ملاحية في الخليج العربي بنشاط غامر في هذا الحقل التجاري فكانت سيراف تربط الخليج بالصين بينما كانت البصرة نقطة التقاء للسبل البحرية وطرق القوافل التجارية حيث بذت في شهرتها ميناء الأبلة الذي ظل مع ذلك المركز التجاري الأوحد ما بين الخليج العربي والخط الملاحي لنهر دجلة الممتد الى البصرة وقد تعزز التبادل آنذاك بين الشرق والغرب بوحدة العملة حيث كان التجار يعتمدون العملة الذهبية وهي الدينار والفضية وهي الدرهم وقد بلغت مكانة سجلماسة مبلغا جعل الأندلسيين أنفسهم يتعاملون بالدنانير السجلماسية (البيان لابن عذارى ج٢ ص ٣٤٤) نظرا لضرورة توحيد العملة بين المراكز التجارية في طريق القوافل وقد وقع العثور عام ١٩٥١ في الانقاض الاسلامية بقصر فرعون (volubilis) على ٢٣١ درهما فضيا من العصر الأموي مع دينار ذهبي دمشقي وكلها دراهم شرقية من واسط ومرو واصطخر وجند يسابور ودمشق وحمدان وافريقية .

واذاعلمناأن البصرة تقع على الطرف المباشر للصحراء في جانب الأرض المزروعة وبساتين النخيل في منطقة شط العرب علمنا لماذا كانت محط انظار الحضريين والصحراويين من المغاربة حيث أسست بصرة المغرب بالقرب من مدينة القصر الكبير شمالي المغرب وظلت مركزا اقتصاديا هاما لصنع الكتان ومرحلة في طريق القوافل الى أن هدمها أبو الفتوح عام ٣٦٨ هـ (البيان لابن عذارى ج ١ ص ٣٣٠) وقد حدثنا ناصر خسرو الذي زار مدينة البصرة الشرقية عام ١٠٥٠ م عما وجده من عادات لدى التجار الذين كانوا يملكون كمبيالات أو سفتجات يحفظونها لدى تاجر عملة أو رجل بنك مقابل ايصال وكل المشتريات تدفع بالشيكات أو الحوالات ويقوم التاجر طوال اقامته في المدينة بصرف كل دفعاته بالشيكات على البنوك ومثل هذه الحوالات كانت أيضا بسجلماسة حيث كانت التجارة مزدهرة مع السودان والبصرة حسب ابن حوقل الذي حدثنا (المسالك والممالك ص ٧٠) عن العوائد التجارية بهذه المدينة (عاصمة الصحراء المؤسسة عام ١٤٠ هـ) فلاحظ انه « رأى صكا فيه ذكر حق على رجل من أهل سجلماسة لرجل آخر من أهلها بأربعين ألف دينار » كما رأى ذلك بخراسان والعراق القاهرة وليس من قبيل الصدفة أن يجعل الخوارج من البصرة موئلا لهم ومركزا ينافسون به الكوفة التي عدت قاعدة من قواعد الشيعة في نفس الوقت الذي جعلوا من سجلماسة في قلب الصحراء المغربية حاضرة لامارة خارجية وحلقة أساسية في سلسلة المراحل التي تأوى اليها القوافل التجارية كما انه ليس من قبيل الصدف أن تتقلص الحركة التجارية بين الخليج والمغرب في القرن الرابع الهجري في نفس الوقت الذي تقلص فيه نفوذ الخوارج .

ومنذ أن استوثقت روابط المغرب بالصحراء في القرن الخامس بدأت أسواق النخاسة تتفق في خفاء وكذلك كان الأمر عندما شكل عنصر الزنج في الدور العباسي الثاني (ما بين

٢٣٣ هـ و ٤٦٨ هـ أي ٨٤٧ م ١٠٧٥ م) طبقة متميزة في المجتمع العربي وخاصة في شمال الخليج فعززوا حركة الرق والنخاسة يساعدهم امتداد النفوذ الاسلامي الى افريقية (أي تونس وجزء من الجزائر) وازدهار الملاحة العربية حيث ما فتىء الأيوبيون أن سيطروا في القرن التالي على الشق الشرقي لبحر العرب اي البحر الابيض المتوسط يساندهم في الشق الغربي الموحدون الذين كان لهم اسطول من اربعمائة قطعة اعتبره المؤرخ الفرنسي اندري جوليان أعظم اسطول في البحر المتوسط ولم يقبض العرب على زمام البحر الاحمر فحسب بل أصبحوا سادة المحيط الهندي لا سيما بعد أن اكتشفوا الرياح الموسمية وسخروها لخدمتهم وأنشأوا الموانىء والمنائر التي تشتعل فيها النيران ليلا لتهتدي بها السفن وعززوا الموانىء بمراكز الحاميات حفاظا عليها من القرصنة وغارات البدو ، وقد أشار ابن مرزوق في « المسند الحسن » (هسبريس (Hesperis) ج ٥ عام ١٩٢٥) الى وجود « مدارس ومناظر على طول الساحل بين أسفي (في المحيط الاطلنطي) وجزائر بني مزغانة (عاصمة الجزائر الحالية) تتخابرفيا بينها باشعال النيران في أعلاها وفي كل محرش رجال مرتبون ونظار وطلاع يكتشفون البحر فلا تظهر فيه قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين الا والتنبير يبدو في المحارس للتحذير » .

وقد اشار البكري (افريقية والمغرب في المسالك ص ٣٥ و ٤٨) الى محارس سوسة والمنستير وفي هذا العصر استعيض عن الموالي الصقالبة الذين نفقت نخاستهم منذ القرن الثالث الهجري واقترن اسمهم بها حتى صار الاوربيون يطلقون اسم الصقالبة (Slaves) على العبيد (esclaves) (٢) . نقول استعيض عنهم بالزنوج الذين أصبح التجار المسلمون يأتون بأعداد ضخمة منهم وقد تجلت هذه الظاهرة بالقسم الشرقي من المغرب العربي أي في تونس خاصة منذ استوطنت جماعات من الباطنيين والزيديين افريقية فرارا من الاضطهاد العباسي ثم استفحل ذلك عندما زج الفاطميون — اقتصاصا من بني زيري — بمائتي ألف قرمطي من بني هلال وبني سليم الذين نشروا الدمار في هذه البلاد مما حدا ابن خلدون الى التنكر في القرن الثامن للعرب الذين لم يقصد بهم سوى الاعراب وخاصة هؤلاء ولم تدخل الى المغرب من هؤلاء سوى فلول منتقاة كان الزمن قد عفى على عنجهيتهم البدوية ونزعتهم القرمطية فكان لهم ضلع في تعريب المغرب وشنقيط والواقع أن الباطنيين من القرامطة أو الزيديين قد عاثوا فسادا في افريقيا وجاس المغامرون منهم في مجاهل الصحراء الافريقية لاصطياد الزنوج في الادغال الكثيفة وفي هذا العصر حادت طريق البر في شمال افريقيا عن خطها العادي لتتصل بالبصرة وبغداد وسوريا ومصر بواسطة الخط الساحلي على طول بحر العرب على أن حركة القرامطة الابادية قد بدأت منذ سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م حيث استولوا على البصرة وظلوا يعرقلون سير القوافل التجارية او قوافل الحجيج لاعتقادهم ان الحج من شعائر الجاهلية بل من قبيل عبادة الأصنام ولذلك أجهز القرامطة على من سموهم بالكفار وعبدة الاحجار بمكة فردموا بئر زمزم وكدسوا جثث القتلى في المسجد الحرام واندفعوا يخربون جوانبه بحرابهم وخيولهم فاحتلوا معهم الحجر الأسود الى الحساء حيث بقي ملقى الى عام ٣٣٩ هـ/٩٥٠ م

وبنو هذيل هؤلاء الذين حاولوا في الخليج الوقوف في وجه القرامطة منتهكي حرمة البيت هم الذين اشرنا الى اعتدائهم عندما هاجروا الى المغرب الاقصى في القرن السادس الهجري

بدعوة من المنصور الموحدي بطل معركة الارك في الاندلس .

ومهما يكن فإن هذه الأحداث قامت حجر عثرة في طريق المبادلات التجارية حيث إن الحشاشين من الإسماعيلية الباطنية امتدت جذورهم في شرقي الخليج حتى الحكم الايوبي إلى الوقت الذي زحف المغول على فارس حوالي ٦٥٩ هـ/١٢٦٠ م .

واذا كانت التجارة قد تقلصت في هذه الفترة بين المغرب والخليج خاصة وبين الشرق والغرب عامة فإن ذلك لم يكن يرجع بالنسبة للمغرب الى وجود هذه الطوائف الهدامة بل لأن هؤلاء كانوا منبثين على طول مراحل القوافل شرقا ينهبون ويقتلون ويدمرون ومع ذلك فان نفس العوامل كانت تدعم حركة النخاسة والمبادلات لا سيما بعد أن احتل ملوك المغرب السعديون السودان أوائل القرن العاشر الهجري ثم العلويون بعدهم عندما توغل زعيمهم السلطان المولى اسماعيل في قلب الصحارى الى حدود غينيا وشكل جيشا من العبيد (أي الزنوج) ما لبث أن أعاد تاريخ ثورات الزنج بالشرق وخاصة بالخليج الا ان عنصرا جديدا ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر حيث حاول البرتغاليون الاستعماريون سد البحر الأحمر في وجه السفن العربية للاستيلاء على مداخله تمهيدا لغزو الخليج العربي وكانوا قد أنشأوا عام ١٤٨٢ م في ساحل الذهب أول مستعمرة لهم في افريقيا وهنا يبرز دور المغرب في انقاذ الخليج من ضغط الاستعمار البرتغالي ففي عام ١٥٤٠ م دخل سليمان القانوني الى الخليج العربي من الشمال ونازل البرتغاليين في معركة ميناء « مصوغ » على الساحل الافريقي من البحر الأحمر حيث اندحر البرتغاليون أمام الاسطول العثماني غير انهم لم يكفوا عن مهاجمة المراكز العربية في الخليج مضاعفين ضغوطهم على المغرب الذي انكفأوا اليه بعد أن قضوا على آخر من تبقى من العرب في الاندلس تقتيلا وتهجيرا ولكن رد فعل المغرب الأقصى كان عنيفا ففي عام ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) هاجم البرتغال بقضه وقضيضه شمال المغرب بقيادة ملكه الشاب الدون سبستيان (Don Sèbastien) وبلغ جند البرتغال آنذاك مائة وخمسة وعشرين ألفا وقطع أسطولهم الرابضة في أصيلا والعرائش ٨٤٧ وزحف الجيش البرتغالي إلى وادي المخازن في متم جمادي الأولى من نفس السنة أي رابع غشت عام ١٥٧٨ م وكانت هجمة صليبية عززت فيها البابوية الزحف المسيحي على العالم الإسلامي شرقا وغربا باستنفار الدول الكاثوليكية وتعبئة شباب الفاتكان وكانت الحملة لاحتلال المغرب منسقة بقيادة البابا اقتصاصا من الوجود العربي بالأندلس وتعويض للمسيحية عن فقدان روديس وجزء من هنغاريا والبابا الاسكندر السادس هو الذي أصدر مرسوم تقسيم العالم الى مناطق نفوذ بين اسبانيا والبرتغال عام ١٤٩٤ غداة الكشف عن امريكا ولكن أبا الله الا أن يهزم هؤلاء الاحزاب وينصر عباده المؤمنين فقتل ملك البرتغال وأسر جيشه وفر أسطوله فكانت هذه المعركة — كما يقول المؤرخ الفرنسي هنري طيراس — المعركة الفاصلة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والإسلام أنزلت ضربة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال مملكة البرتغال لأن الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة ظلت خلالها خاضعة هي نفسها للاسبان ولذلك تم خلال هذه الفترة إجلاء البرتغاليين عن منطقة البحرين التى احتلوها قرنا كاملا عام ١٦٢٢ م أي بعد

معركة وادي المخازن بأربع وأربعين سنة كما طرد البرتغاليون عن مجموع مستعمراتهم على الشط العربي عام ١٦٤٩ م الموافق ١٠٥٩ هـ وبذلك تحرر العالم العربي من هيمنة البرتغال الذين لطخوا تاريخ العروبة والإسلام طوال أربعة قرون .

واذا كان الخليج العربي قد غدا منذ القرن الثالث الهجري المرحلة الرئيسية في تاريخ الملاحة العربية تمر به المراكب في ذهابها وإيابها بين اوربا والشرق الأقصى عبر البحر الأبيض المتوسط فان كلا من الخليج والبحر المتوسط كانا عالة الواحد على الآخر واستمر هذا التساوق إلى القرن العاشر الهجري عندما كان مضيق جبل طارق هو الممر الفاصل بين المحيط الاطلنطيكي والمتوسط فكانت مدينة سبتة منطلق المراكب التجارية الى ديار الهند وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني عام ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م وباستئصال شأفة الغزو البرتغالي في الخليج وتقليص ظلهم في سواحل المغرب شمالا وغربا تمكن العرب من الانتصار في الحرب الصليبية الثانية التي أججت اوربا نيرانها ضد العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتنطلق في حلقات اخرى من هذه الحرب بقيادة الهولنديين والانجليز والفرنسيين في كل من المغرب والخليج العربي غير ان حدثا جديدا كلل انبثاق العصر الحديث وانقضاء القرون الوسطى وهو اكتشاف امريكا عام ٨٩٨ هـ/١٤٩٢ م من طرف كريستوف كولمبس ذلك الاكتشاف الذي يرجع الفضل فيه الى رجل من أبناء رأس الخيمة على الشاطىء الغربي للخليج العربي وهذا الرجل هو ابن ماجد أحمد السعدي أسد البحر ابن ابي الركائب الذي ساهم على غير قصد منه في تحطيم سيادة العرب على المحيط حين استعان به فاسكو دوغاما قائد الاسطول البرتغالي عام ١٤٩٨ لقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط الهندي ورأس الخيمة هي احدى الامارات السبع التي ظلت الى منتصف القرن الثامن عشر عاصمة لجميع ساحل عمان وقد أقضت مضاجع أساطيل شركة الهند الشرقية في الخليجين والمحيط .

والغريب ان اكتشاف امريكا الذي نسبه الكثير من المؤرخين الى العرب يرجع الفضل فيه بالذات إما الى رجال الخليج قبل الميلاد أو الى عالم من علماء الاندلس والمغرب فقد تأكد ان الفينيقيين المنتسبين أصلا الى الخليج قاموا بدورة حول العالم طوال ثلاث سنوات طافوا خلالها حول افريقيا ووصلو الى البرازيل وأسسوا مملكة هناك ما زالت معالمها قائمة الى الآن ومن جملتها الحجارة المكتوبة باللغة البونيقة اي لهجة افريقيا الشمالية مما يدل — اذا صحت هذه الرواية — على أن القرجنيين — وهم عرب فينيقيون تأقلموا في المغرب — هم الذين أسهموا مع المغاربة في اكتشاف امريكا على أن كريستوف كولومبس نفسه يعترف — كما أورد ذلك المؤرخ الفرنسي رونان في كتابه «ابن رشد ومذهبه (Averroès et l'Averroisme) بأن كولومبس ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بأن الذي أوعز إليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه «الكليات» في الطب على أن مجلة «نيوزويك» الامريكية أكدت في عددها الصادر في ابريل ١٩٦٠ (راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٣) ان الوثائق التي عثر عليها

تثبت ان امريكا كانت معروفة للعرب « الذين قاموا — حسب تعبيره — قبل سنة ١١٠٠ م على الطرف الغربي للعالم الاسلامي ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد ورسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي » وقد أيد هذه النظرية (٣) الدكتور لين شينج بائع أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد كما أيدها الدكتور ريتشارد رودولف رئيس المؤتمر الذي عقدته الجمعية الشرقية الامريكية . وقد كان ابن عربي الحاتمي يرى أن وراء المحيط الاطلنطيقي أمما وعمرانا وقد عاش قبل كولومبس بثلاثة قرون وتحدث محمود الاصفهاني (المتوفي عام ٧٤٩ هـ) قبل كولومبس بمائة وخمسين سنة عن احتمال وجود أرض وراء المحيط كما ذكر ابن الوردي في جغرافيته انه يوجد وراء الجزر الخالدات (أي كناريا) جزائر وصفها وصفا يكاد ينطبق على امريكا وقد عاش ابن الوردي قبل كولومبس بأكثر من مائة سنة (عبد القادر المغربي — محاضرات مجمع دمشق ج ٢ ص ٢٣٣) .

وهنا بدأت في المغرب والخليج فترة جديدة من الصراع تجلى في ظهور الانجليز على مسرح التجارة الخارجية حيث تنفسوا الصعداء من اندحار البرتغال فأقاموا في الشرق الشركة الهندية وفي المغرب شركة بربريا (Barbary Company) وبينما أرادوا أن يركزوا في الخليج وجودهم بملء ما تركه البرتغاليون من فراغ إذا بهم يكتفون في المغرب بالعمل على حماية صفقاتهم التجارية من القرصنة وتأمين البحر المتوسط من غارات المراكب والسفن المغربية مما أدى ببعض الدول الكبرى كالدنمارك (٢) والسويد وبعض المرافىء الحرة كهامبورغ وبريم بألمانيا الى دفع إتاوة سنوية خاصة للمغرب اعتصاما بأسطوله من لصوصية البحر . وكان قراصنة المغرب قد مدوا شبكة غاراتهم الى المحيط الأطلنطيقي فواجهوا الانجليز في عقر ديارهم وقلصوا من جهة ثانية ضغط هؤلاء على الشرق العربي وخاصة الخليج لاضطرارهم الى الاحتفاظ بجزء من أسطولهم لحماية سواحل الجزر البريطانية الا أن الانجليز فوجئوا هنا وهناك في آن واحد على طريق الهند المارة من جبل طارق بمزاحم جديد هو هولندا قامت هي الاخرى بتحدي القرار البابوي الهادف الى اقتسام العالم بين زعيمتي الكاثوليكية آنذاك اسبانيا والبرتغال وكان لقيام الحركة البروتستانتية ضلع في دعم هذا الاتجاه فأنشأ الهولنديون عام ١٥٩٢ م شركة للتجارة مع الهند واتجه أسطول هولندي بين ١٥٩٨ م ١٦٠١ (موافق ١٠٠٧ ١٠١٠ هـ) إلى المحيط الهندي عن طريق الممر الجديد برأس الرجاء الصالح للاتجار والغزو معا بينما عقدوا مع المغرب الأقصى معاهدة عام ١٦١٠ م للحصول على رسوم الأسبقية في التجارة الخارجية ، ولم يكد يهل عام ١٦٤٠ م (١٠٥٠ هـ) حتى احتل الهولنديون مكان الصدارة في الخليج العربي الا أن صراعهم ضد الأنجليز ما فتىء أن استفحل بسبب تدخل القراصنة المغاربة الذين كانوا يعملون بغير قصد منهم على التخفيف من ضغط الفريقين على الخليج العربي ، فقد كان كل من الانجليز والهولنديين يناصب العداء للاسبان عدوهم المشترك سياسيا ودينيا واقتصاديا الا ان الهولنديين ظلوا يمدون سفن القرصنة المغربية بالعتاد ومواد السفانة وقطع الغيار بينما طفق الأنجليز يواصلون حربا شعواء ضد هؤلاء القراصنة حتى اندلعت الحرب بين الطرفين عام ١٦٥٢ م (١٠٦٣ هـ) طوال عامين واتسعت شبكتها الى ما

وراء البحار فاشتبك الأسطولان الأنجليزي والهولندي في مياه الهند المؤدية الى الخليج والواقع أن القراصنة المغاربة قلصوا من نشاط الانجليز فتعطلت تجارتهم في الشرق في نفس الوقت الذي أدى حياد القراصنة بهولندا إلى نوع من الحصانة تمتع به أسطولها في البحر المتوسط مما فسح لها مجال الضغط على الخليج وقد احتفظ المغرب الأقصى باستقلاله في هذه الفترات بل انه احتفظ باستقلاله خلال ألف عام (الى عام ١٩١٢) فكان القطر العربي الاسلامي الوحيد الذي ظل في منأى عن سيطرة الخلافة العثمانية والذي عرف كيف يستغل انتصاره في معركة وادي المخازن حيث أصبحت دول اوربا تخطب وده لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالامر الهين ولا بالشيء الذي يمر دون ان يثير إعجاب العالم مما حدا الأنجليز الى مفاتحة المغرب في القيام بعمل موحد لخلق كوندومنيوم مشترك في الهند وفي عام ١٦٠٠ م وجه المنصور الى ايليزابيث ملكة انجلترا سفارة للقيام بمأمورية سرية من أجل تحقيق التحالف الانجليزي المغربي ضد اسبانيا وقد اقترحت ملكة انجلترا على السلطان اكتساح الهند بدل اسبانيا نظرا لكون فليب الثاني يستمد موارده من الهند وقد شاطرها السلطان هذا الرأي مطالبا لتمويل المشروع بمائة الف جنيه استرليني وانشغل المغرب في لم شتاته وتطوير صناعته فزرع قصب السكر (٤) وفتح مصانع لتكريره فتنافس البلاطان الانجليزي والفرنسي على اقتنائه وصدره المغرب الى الشرق في جملة ما صدر من جلود وزيوت ومعادن (من نحاس ورصاص وحديد وقصدير بالإضافة الى ملح البارود والكبريت) وأصبح للدينار المغربي نفاق في السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبي الى ٣ر٥٤٨ غرام وتهافت المضاربون من الانجليز على هذه العملة القوية يستعيضون بها عما خسروه من صفقات في الخليج (٦) بل أصبح المغرب يدلي بدلوه في توجيه السياسة الاوربية وفي فتح قروض (ناب منها دولة هولند مليون ونصف مليون دينار) واكتساح اوربا حيث وجه عملاء للدعاية لمنتجاته وسوائمه ومعادنه عاملا على حماية الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية .

غير أن منافسا جديدا ما لبث أن برز هو الاستعمار الفرنسي الذي اضطر عدوتي الأمس (هولندا وانجلترا) إلى التحالف لدرء خطره الداهم ولكن لم يمنع فرنسا من تهديد مصالح الأنجليز في الخليج واستطاع نابليون أن يطأ تراب النيل فاتحا وان يهدد المولى سليمان ملك المغرب بالانقضاض عليه في مائة ألف من جنده إذا هو لم ينضم الى كتلة الحصار البري (Bloc Continental) المضروب على الانجليز وكان أسطول القراصنة المغاربة يقض مضاجع الاوربيين في المتوسط ولم تكن علائق فرنسا مع المغرب مستوسقة بسبب ذلك الصراع البحري الذي جعل المغرب ينهج سياسة التدافع بين الدول الاوربية يثير هذه ضد تلك ويحالف جانبا للتملص من ضغط جانب آخر .

والواقع ان انقسام المغرب الى أقاليم مستقلة خلال القرن السابع عشر (قبيل توحيد المغرب على يد الدولة العلوية) هو نفسه الذي ترك ثغرات تسرب منها المستعمرون مثل ما وقع في امارات الخليج بالنسبة للهولنديين والأنجليز والفرنسيين .

ففي الوقت الذي اتسع نطاق التجارة الانجليزية في الشرق واوربا الشرقية اي القرن

السادس عشر تزايد ايضا مع المغرب وحتى غينيا بافريقيا غير ان الفرنسيين كانوا قد بذوا حتى الهولنديين في مبادلاتهم مع المغرب حيث دخلت في عام واحد (١٦٩٨ م) لمرسى سلا أربعون سفينة تجارية وتأسست بعد ذلك بسنتين شركة تجارية فرنسية اضطلعت إصدار المنتجات المغربية وقد بلغ عدد السفارات المغربية الى فرنسا نحوا من سبع وعشرين سفارة أولاها عام ١٥٧٦ م والأخيرة عام ١٩٠٩ أن قبيل الحماية بثلاث سنوات .

كانت حجرة بادس تعتبر ميناء فاس في البحر الأبيض المتوسط وكان الاسطول التجاري لبعض الدول يرابط فيها الا أن القراصنة الجزائريين اتخذوها عام ١٥٦٤ م (٩٧١ هـ) مقرا للهجوم على سواحل الاندلس واقتناص السفن المتوجهة للهند والخليج وكان قراصنة تطوان والعرائش يتعاونون معهم لأن القرصنة الجهادية كانت عبارة عن رد فعل المسلمين والاعلاج من كافة سواحل المتوسط) مع الانجليز لمساعدتهم على احتلال جبل طارق وكانت معظم الدول الاسلامية المتوسطة تساند هذه القرصنة لا لكونها انطلاقة مشروعة ضد العدوان الايبيري فحسب بل أيضا لأنها أعادت الى العرب سيادة المتوسط والمحيط وواجهت القرصنة المسيحية ونشرت الأمن والطمأنينة في البحار بالنسبة للسفن العربية والحليفة ، وكان معظم البوارج الحربية في أوائل العهد العلوي (أي في نهاية القرن السابع عشر) قد اقتنصها القرصان من الأسطول الفرنسي أو الهولندي أو الانجليزي وأهمها تسع عشرة سفينة انجليزية وأربع فرنسية مما يدل على هيمنة أسطول القرصان الجهادي ، وقد بلغ عدد القطع البحرية الخمسين في عهد المولى محمد بن عبدالله وسبعا وأربعين أيام المولى سليمان ولكن المغرب ظل مع ذاك ينعم في الحقل الدولي بمكانة ملحوظة مما حدا روسيا الى طلب انضمامه في حرب القرم (١٨٥٤ م — ١٨٥٦ م) الى كتلة المحايدين واستدراجه للدخول الى الحلف الروسي الامريكي ضد تركيا وفرنسا وانجلترا وكان المغرب يشعر بأن انغماره في هذا الحلف يعزز مركزه ضد الفرنسيين والانجليز الذين بدأوا يتنافسون لبسط نفوذهم على المغرب لا سيما بعدما احتلت فرنسا الجزائر وأجبرت المغرب على امضاء معاهدة لالة مغنية عام ١٨٤٥ ولكن المغرب راعى ذمام الاسلام فلم يجرؤ على الدخول في حلف موجه ضد تركيا المسلمة رغم كونها كانت حجر عثرة في سبيل وصل علاقاته مع الشرق العربي وخاصة الخليج منذ أن سيطر العثمانيون عليها في منتصف القرن الخامس عشر وتمتاز هذه الصلات العريقة بين الخليج العربي والمغرب الاقصى وهما شقان متنائيان للوطن العربي الممتد الى المحيط — بظاهرة هي أصالة معظم مصطلحاتها الدارجة بالنسبة للفصحى ! ولا شك أن هذه الوصلة التي استوثقت عبر العصور راجعة بالاضافة الى العوامل التى أشرنا اليها كوحدة الأصل الكنعاني والتأثير الحميري المشترك الى وحدة المنبع المالكي في مفرداته الفقهية ومصادر اقتباسه الحديثية والقرآنية ولا شك أن لرواج المصطلحات المالكة في جميع المناحي الاجتماعية خاصة في أبي ظبي أثرا قويا في تكييف هذا التراث الوحدوي كما أن احتكاك التجار المغاربة بزملائهم الخليجيين قد خلف مجموعة من الالفاظ الدارجة أشرنا الى بعضها في معجم خاص حاولنا فيه ابراز مظاهر الوحدة في عاميتي المغرب والخليج ونشر في مجلة اللسان العربي (عدد ٥ — ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) . وهذه الكلمات موحدة المعنى في الخليج والشام والمغرب أي في المراكز التى ورثت لغة كنعان العربية

وتأثرت بلغة القرطاجنيين أي اللغة البونيقية وهاكم جملة منها : البايت (للباقي من طعام الأمس) والبحيرة أو البحيرة (للمستنقع) والبراحة (للبراح) والبساسة (للبساس) وبغى يبغي (بمعنى أراد) والبلدة والبلع (لمنزلتي من منازل القمر) والبلدية (لاحدى دوائر الحكومة) وبلم فمه (أي أغلقه) والتحسونة أو الحسانة (للحلاقة) والجنطة أو الشنطة (للحقيبة) والحارة (للمحلة والحي) وحب (بمعنى إتمام القرآن) والخنفرة (أي الانف الكبير) والدرويش (بمعنى الفقير) والربعة (أو الربيعة لصندوق إيداع أجزاء القرآن) والردحة (بمعنى الرقص) والشاهد (بمعنى السبابة من الأصابع) والصيني (أي إناء النحاس أو الخزف) والطنا (بمعنى الاغاظة تقول أطناني أي أغاظني) والعرضة (أي حفلة الزواج) والعزيمة (أي الدعوة الى مأدبة) والاعشار (بمعنى الزكوات) والعمارية (أي الحفة) والعيال (بمعنى الأولاد الصغار) والغربي (أي الهواء الذي يهب من جهة الغرب) والفكع أو الفقاع (أي الكمأة) والكحة (بمعنى السعال) وكخ (للنهي عن الاقتراب من الشيء القذر) والمرفاعة أو المرفع (للرف المعلق) والمشموم (للباقة من الرياحين) والمطهر (للمرحاض) والمكبة أو المكب (صحن الطعام) وهنالك أسماء أعطيت لمدن ومناطق شتى تقع في امتداد طرق القوافل منها « الجبل الاخضر » في المغرب وهو ينبثق كجزيرة في قلب الصحراء وكذلك « الجبل الأخضر » الذي يقوم على محاذاة ساحل عمان وسط كثبان الرمل من الصحراء الحمراء الخليجية .

وتبرز إمارة أبي ظبي في هذه المجموعة الخليجية كمرحلة من مراحل القوافل المغربية نظرا لواحاتها الثرية واتصالها بالبر بطريق ضيق تقع على حدود المملكة العربية السعودية ونظرا لما كان يسودها من أمن وهدوء حتى استحق ساحلها وهو ساحل عمان أي يسمى ساحل الهدنة .

تلك مظاهر للوحدة الاصيلة المتغلغلة بين الخليج العربي والمغرب العربي تبرز امتداد الوطن العربي من المحيط الهندي الى المحيط الاطلنطيقي وقد عادت هذه الوحدة اليوم الى عنفوان عزها بعد انهيار الاستعمار وانكشاف الستر الكثيفة التي قامت حائلا اصطناعيا بين إخوان طوال عدة قرون ولكننا عند اللقاء من جديد بعد طول الفرقة نشعر وكأننا لم نفترق لأن خلجات قلوبنا

متساوية ولأن لنا في مقومات تراثنا العربي الإسلامي سندا قويا لم تفصمه نوائب الدهر ولم تحل عراه الوثيق مكائد المستعمرين .

عبد العزيز بنعبد الله

(٠) ودرج على ذلك المؤرخ الروماني بلين Pline المتوفي عام ٧٩ م حيث سمى الخليج باسمه الصحيح وهو الخليج العربي .

(١) وقد ندد الرائد الدنماركي كارستن نيبور عام ١٧٦٢ م (١١٧٦ هـ) بهذا الزعم الذي ردده جغرافيون صوروا جزءا من بلاد العرب كأنه خاضع — كما يقول نيبور — لحكم ملوك الفرس كما أبرز هذه الحقيقة الرحالة الانجليزى هورو دريك أوين في القرن العشرين رغم تواطؤ الكثير من الجغرافيين المعاصرين على الغض من عروبة الخليج .

(٢) صقلب هي أرض بالاندلس وصقلية حسب ياقوت (معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٢) ولعل قسما من الصقالبة ينسب اليها لا الى جنس السلاف Slaves .

(٣) راجع الخليج العربي ٩ قدري قلعجي ص ٥٦ .

(٤) كانت الدنمارك تدفع سنويا للمغرب ٥١٠٠٠ ويكسدال أي أزيد من ربع مليون فرنك ذهبي .

(٥) كان السكر يصنع من فى العروبة بافريقيا ومصر (الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٠٣ وافريقية وخاصة في قابس وحلولا (المسالك للبكري — جزء افريقية والمغرب ص ١٧ و ٣٢) وكانت معاصر السكر في المغرب تدر سنويا على المنصور السعدي أزيد من ستمائة الف أوقية ذهبية (وزن الاوقية ٣٠ غرام تقريبا) وكان فى المغرب مناجم فضة وذهب (البكري) خاصة قرب سجلماسة (كتاب الاستبصار) والنحاس الخالص الذي لا يعد له غيره شرقا وغربا (الادريسي) بالاضافة الى القطن الذي كان يزرع بتادلا (وصف افريقيا للادريسي ص ٥٠) وتطورت على يد الانجليز عام ١٨٦٤ م في منطقة مدينة الجديدة صناعة حريري شبيه بالقطن الامريكي كان نافقا في أوربا وذلك بالاضافة الى مصانع الطلس،، Satin أيام السعديين .

(٦) كانت تنبكتو تؤدي الى المغرب جزية سنوية قدرها ستون قنطارا من التبر أي الذهب غير المسبوك مما جعل من المنصور الذهبي « أعظم أمير في العالم من حيث العملة » وكان الانجليز يهربون الذهب في صناديق السكر المغربي .